شوقى وعالمه الشعرى

المنظر الأول :

صالة محاضرات فى إحدى كليات الآداب بالجامعة ، الصالة ممتلئة بالوافدين ، وهم فى شوق لوصول المحاضر ، الذى عودهم الطريف فى كل ما يعالجه من مواضيع ، ويحاضر فيه من دراسات .

زميل لزميله : إن اختيار موضوع المحاضرة ، وتركيزه على الناحية الإنسانية فى شعر شوقى ، يدل على اتساع فى التفكير ، وعلى نظرة شمولية فى الدراسة ، وعلى طرق سبيل فيها جدة وطرافة وتنوع ، فإن أقلاماً كثيرة تناولت شوقى فى سيرته الذاتية ، كما تناولت تقييم شعره وفقاً للمقاييس المعهودة ، أما أن يتناول جانب إنسانيته ، فهذه هى الناحية التى ينشط فيها عامل الجذب وشد الانتباه .

الزميل المستمع : فى الواقع ، هذا الأمر جدير بالملاحظة والمتابعة ، وإنك ترى فى إقبال الوافدين ، الدليل على صحة ما عرضت ، وصدق ما أحسست ، وأنا من جانبى أضيف إلى ما قلته ، أن جوانب شاعر كشوقى تحمل

المتخصصين ، على مثل هذه الدراسة ، ومهما تُعددت الدراسات فلكل باحث نظرة جديدة .. وهذا ما حدث بالنسبة لأبى العلاء المعرى ، أو المتنبى ، أو برنارد شو ، أو جان جاك روسو ، عندما تنوعت أساليب دراسة كل شخصية من هذه الشخصيات ، على يد كتاب ونقاد ، مختلفى الاتجاهات والأساليب .

ذلك أن لكل فنان أو رسام ، من موقعه الذى يرسم منه ، أسلوبه الخاص ، وما يمده به من خيال ومحتوى ومضمون ، لا يراه غيره . كالموديل الذى تمثله أنثى ، يتحلق الفنانون حولها ، حيث يصورها كل منهم بما توحى له به روحها التى تسكن جسدها ، ونظرته هو ، إلى ما بداخلها ، لا إلى ما هو ظاهر من بدنها ، فإن عالم البصر ، يحجب الكثير من عالم البصيرة .

وليس للفن نهاية أو كلمة أخيرة ، فالإنسان منذ بدأ يتدرج فى رقيه ، ازداد الفن معه فى إضافات مستمرة على مسيرة الحياة ، وللشاعر الكبير مفاتيح عديدة لشخصيته ، تستطيع أن تدلف عن طريقها إلى دخيلة نفس الشاعر وما يطوى عليه الجوانح . وسنرى مما سوف نسمعه من المحاضر . إيضاحًا لما نحن فيه من جدل .

الزميل الأول : أرى آلات التصوير أخذت تصور الصالة والوافدين ، للنشر عن المحاضرة بأوضح وسائل النشر ، وكنت أتمنى أن يتم تسجيلها تليفزيونيا ، لتعم الفائدة للمشاهدين كما ستتم بالنسبة للمستمعين .

الزميل الثانى : ها هى ذى آلات وكاميرات التليفزيون قد وصلت ، وكأنك كنت تقرأ صفحة الغيب .

* * *

يدخل المحاضر ، ويحيى جمهور الوافدين ، فى تواضع ، ويأخذ مقعده ، أمام القائم الذى يحمل مصباحاً ، وعلى سطحه وضع المحاضر أوراقه التى أخذ فى إلقاء نظرة عجلى للاطمئنان إلى ترتيب فصولها التى دونها .

سكوت تام يعقبه صوت المحاضر :

سيداتى ، آنساتى ، سادتى : حديثنا اليوم عن أمير الشعراء أحمد شوقى الشاعر الإنسان ، ولست أمانع فى أن يسألنى من يريد عما يشاء ، وسوف أجيب عن سؤاله بما يوضح ويكشف له عما يستعلم إن استطعت إلى ذلك سبيلا ، على أن يكون السؤال فى إطار موضوع المحاضرة التى سوف يتشعب فيها مجال القول ، فى نواح عديدة ، أرجو أن تحقق رغباتكم .

وقد يقول قائل ، إنه ما دام شوقى شاعرًا ، فهو وليد تجارب عديدة وأطوار وصور وأحداث ومواقف ، من المفروض أن يكون بينها ، موقفه الإنسانى حيال ما ينظم .

ولكن الرد على ذلك ، يتصل بما يحمله الشاعر بين جنبيه من حساسية مفرطة ، وعاطفة مشبوبة ، هى التى تكون بارزة فيما نحن فيه من حديث ، فإن الشاعر يمتاز عن زميله بفارق الحساسية والمشاعر والصدق ، والعاطفة المتقدة ، وبهذا يتفاوتون فى الموازين .

والشعر ينبع من الشعور ، وكل ما يثير العاطفة ويلعب بأوتار القلوب فهو شعر ، ولكن درجات الحساسية والتأثر العاطفى ، عند تناولهم النواحى الإنسانية ، تتباين فيما يعالجون من أهداف عظام فى نظمهم لما يحسون به ويطرحونه على الناس فى هذا المجال .

وإن تفانى الفنان فى فنه واندماجه فيه ، حمل فان جوخ الرسام الهولندى الأشهر على أن يقول إنه عندما يرسم زهرة ، يصبح هو نفسه زهرة ، أى يتجسدها ويصبح هو الزهرة ، وهذا من فرط اندماجه فيما بين يديه وأمام ناظريه من مادة يريد أن يخضعها لفنه أولا ولمشاعره وأحاسيسه ثانياً ، وهو فى ذلك أشبه ما يكون بالممثل الذى يندمج فى دوره حتى يصبح هو صاحب الشخصية التى يقوم بتمثيلها ، وليس هو الممثل المعروف بين زملائه باسمه أو شخصه أو صفاته .

* * *

كانت هذه الظاهرة تتمشى فى شعر شوقى وتنساب حتى تكاد تعم كل ما نظم فى أى باب وفى أى زمان وفى أى مكان . فهو إنسان يفعم بالإنسانية ، إذا خاطب حجرًا فإنه يخاطبه كما لو كان إنساناً تجرى فى عروقه الدماء ، وكان شوقى قد عرف بمحبته للحياة محبة عارمة ، تحمله على أن يحيط نفسه بكل ما هو حى ، حتى لو كان جماداً أو نباتاً أو حجرًا :

اسمعه وهو يخاطب أبا الهول .

تحرك أبا الهول هذا الزمان تحرك ما فيه حتى الحجر
أبا الهول لو لم تكن آية لكان وفاؤك إحدى العبر

* * *

أو اسمعه وهو ينظر إلى بقايا معبد (أنس الوجود) ، (فيله) من أحجار تترنح وهى توشك أن تنقض .

قف بهذى القصور فى اليم غرقى ممسكًا بعضها من الذعر بعضا

كعذارى أخفين فى الماء بضًّا سابحات به وأبدين بضا

لم ينس وهو يخاطب الأحجار ، حبه للجمال ونظرته إلى بياض السيقان التى اختفى منها ما اختفى ، وكشفت عن أجزاء منها لتغرى بها الناظرين .

وشوقى شاعر موكل بالجمال ، يعرضه بعد أن يتم صياغته كأتقن ما تكون عليه صياغة الصائغ الفنان . ويطرح ما صنع أمام الأعين ، ويدعو كل البشر للتنعم بهذا الجمال والحسن الأخاذ ، أينما وجد حسن ، وحيثما أطل جمال من صنع الله فى هذا الوجود .

لا والقوام الذى والأعين اللاتى ما خنتُ رب القنا والمشرفيات
ولا سلوت ولم أهم ولا خطرت بالبال سلواك فى ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب وثغرك المتمنَّى كل حاجاتى

أو اسمعه يقول :

ردت الروح على المضنى معك أحسن الأيام يوم أرجعك
مر من بعدك ما روعنى أترى يا حلو بعدى ردعك !
كم شكوت البين بالليل إلى مطلع الفجر عسى أن يطلعك
موقعى عندك لا أعلمه آه لو تعلم عندى موقعك

* * *

وشعر شوقى العاطفى ، ينم عن نفس عفيفة ، وقلب يكتوى ويسلم أمره للمقادير ، وهذه صفات لا تتردد ولا ينبض بها إلا قلب من غلبت إنسانيته على عاطفته الحسية .

وهو فى عشقه وحبه ، إنسان وفىٌّ يحب ويعتز بمن أحب فهو يقول :

بينى وبينك فى الهوى سبب سيجمعنا متينه
الروح ملك يمينه تفديه ما ملكت يمينه

وهو صاحب مبدأ فى الحب ، إنسانى النزعة ، فهو على يقين من أنه ما دامت قد قامت علاقة حب بين إنسان وإنسان ، فإن هناك وراء الغيب من يرعاها ويحفظها طالما كانت عفيفة طاهرة .

ثم يشكو ما فعلت به العيون شكوى إنسانية تسأل الرحمة :

أدارى العيون الفاترات السواجيا وأشكو إليها كيد إنسانها بيا
قتلن ومنّين القتيل بألسن من السحر يبدلن المنايا أمانيا
وكلمن بالألحاظ مرضى كليلة فكانت صحاحًا فى القلوب مواضيا

* * *

وشوقى من أبرز الشعراء فى تعمقه الأشياء ، حتى يصل إلى أغوارها ، ثم يتحدث بما أحس ، وما انتهى إليه من شعور ، حديث المفهم من ناحية ، وحديث صاحب التجربة من ناحية أخرى .

والفن فى رأيى ، إلى جانب تعميقه للحياة ، فإنه محاولة لإعادة تشكيل المرئيات على نسق ينبع من داخلنا ، ومن ذات مشاعرنا ومما تتركه فينا من أحاسيس ومشاعر .

وقد سئل فيلسوف عن خير تعريف للفن ، فأجاب :

الفن هو امتزاج الإنسان بالحقيقة والطبيعة . والحقيقة مصدر الشعور

الصادق ، والطبيعة ملهمة للفنان بما تعرضه من مفاتنها عليه ، وهى أدرى بما تثيره تلك المفاتن فى النواظر والمشاعر ، فتكشف عما يوقظ القلب العطوف الشفيف ، وما يزال حتى يختار خيرها ويستأثر بما أثار لبّه وعاطفته ، ويعود للطبيعة التى ألهمته كل هذا البهاء ، ليرد فضلها ويدها عنده ، بأن يسجل افتتانه بآلته التى اختصه الله بها ، شعرًا أو نثراً ، أو نقشاً أو نحتاً ، أو لحناً أو غناء .

وكان شوق يمتزج بالطبيعة فى شعره امتزاجاً يتحول فيه إلى جزء منها لا انفصام منه عنها فهى فى نظره الإنسانى شىء حى ، والحى يألف الحى .

استمع إليه فى هذا النظم :

هل تبم البان فؤاد الحمام فناح فاستبكى جفون الغمام
أم شقه ما شفنى فانثنى مبلبل البال شريد المنام
يهزه الأيك إلى إلفه هز الفراش المدنف المستهام
وتوقد الذكرى بأحشائه جمرًا من الشوق حثيث الضرام
كذلك العاشق عند الدجى يا للهوى مما يثير الظلام !

* * *

وهو حتى فى حنينه إلى مصر ، عندما كان فى منفاه بالأندلس ، كنت تلمس فى ذلك الحنين ، صرخة الملهوف الذى يحن لوطن هو فى قرارة نفسه فوق كل خلد ، بل هو حبيبه الذى فارقه على غير إرادته .

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس !
وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

ثم يطول تحنانه إلى مصر مع الأمل فى العودة مهما طال الأمد ، فيسرى عن نفسه بقوله :

بنّا فلم نخل من روح يراوحنا من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا

ولعلنا نحسن إن وقفنا هنا وقفة ، نستبين من هذا النظم ، إحساسه بالإنسانية وبكلفه بالحياة ، وبإيمانه فى الخالق القادر ، فهو يقارن وهو فى منفاه ، بين نفسه ، وبين موسى عندما كان طفلاً يخشى عليه من بطش السلطان ، وألهمت أمه أن تلقيه فى اليم فى صندوق راحت كفالة الله ترعاه لتعيده إلى أمه لتقر عينها بعودته ، وهذا ما أحسه من أن مصر وهى تبعده ، إنما كانت تفعل ذلك لفترة وظروف تقتضى ذلك ، حتى إذا مرت المحنة عاد سالماً كما عاد موسى إلى أمه سالماً معافى ، حتى أن الخالى من الهم ، أصبح يوصف فؤاده بأنه أفرغ من فؤاد أم موسى .

وكأنما كان حافظ إبراهيم شاعر النيل يحس بغربة شوق فى المنفى وبحنينه الذى يملأ قلبه الذى ما نبض نبضة إلا فى حب مصر ، كما كان يحس بما كان يملأ مشاعره وجرائمه بأمل العودة إلى ذلك الوطن العزيز الذى أحبه كما يحب العاشق ويتعذب فى وجده ويشقى فى الابتعاد عمن أحب . فشوق دائماً ما تشعر فى ثنايا شعره بإنسانيته بحيث تحس بأنه يبعث الحياة فى كل ما يحيط به من طير أو نبات أو جماد ، فما بالك بوطن جمع كل ذلك وزاد عليه الحنين وحبه الجارف اللهيف .

فلما عاد من المنفى وأقيم لشوقى حفل فى دار الأوبرا ، رأى شعراء العرب أن يبايعوه فيه بإمارة الشعر وكان ذلك فى ١٩٢٧/٤/٢٩ ، حيث ألقى حافظ إبراهيم قصيدة عصماء ، سبقه فى الإنشاد فى ذلك الحفل ، الضيوف من كبار شعراء العرب ، حتى إذا ما انتهوا من إنشادهم قام ليلقى قصيدته التى جاء فيها :

وعدت فقرت عين مصر وأصبحت ... رياض القوافى فى ربيع موشع
حمى يتهادى النيل تحت ظلاله ... تهادى خود فى رداء مجذع
لقد كنت ترجو منه بالأمس قطرة ... فدونكه فابرد غليلك وانقع
أمير القوافى قد أتيت مبايعاً ... وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

* * *

وعندما انتهى حافظ من إلقاء قصيدته ، وقف الكاتب الكبير والصحفى الأديب الأستاذ المرحوم فكرى أباظة ، ليلقى قصيدة شوقى نيابة عنه وكان هذا دأبه وسيأتى تفصيله فى حينه . والقصيدة كما سيتبين من أبياتها مثال للتواضع الذى لا يلحق إلا بكل عظيم ، وهو يرجع كل ما أفاءه الله عليه من نعمة النبوغ إلى مشيئة الله لا إلى جهده وتفرده .

ما الرحيق الذى يذوقون من كر ... مى وإن عشت طائفاً بدنانه
وهبونى الحمام لذة سجع ... أين فضل الحمام فى تحتانه
وترفى فى اللهاة ما للمغنى ... من يد فى صفائه ولبانه

* * *

وما دام قد جرى الحديث بنا حتى تعلق بحافظ إبراهيم شاعر النيل ، فإنه

يتعين علينا أن نذكر موقفاً له مع شوقى ينم عن شعور إنسانى جليل كريم ، فياض بالوفاء وأصدق العرفان .

فقد بعث أحمد شوقى من منفاه فى الأندلس إلى حافظ إبراهيم بهذه الأبيات :

يا ساكنى مصر إنا لا نزال على ... عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركمو ... شيئاً نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة ... ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

وقد رد عليه حافظ إبراهيم بهذه الأبيات الصادقة النبيلة :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله ... صاد ويسقى رُبا مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ... ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه ... وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

أحد المستمعين :

هل فى استطاعة أستاذنا الدكتور المحاضر – إذا سمح الوقت والمقام – أن نعقد مقارنة بين شوقى الإنسان من خلال شعره ، وحافظ إبراهيم شاعر النيل الإنسان فى مواقف تختلف عن مواقف شوقى .

الدكتور المحاضر :

المجال لا يتسع للحديث عن الشاعرين الكبيرين اتساعا يفى بقدريهما . لو أن الوقت يسمح ، أو أن هدفى من هذه المحاضرة يمكن أن يدخل عليه عقد

مقارنات منذ أن كان مخصصا للحديث عن شوق الشاعر الإنسان . ولكنى أوجز القول ، لأعرض إلى ظروف نشأة كل شاعر ، لأنها الركيزة التى ينبنى عليها مجمل اتجاه الشاعر وفلسفته ومراميه ، ولعلى بذلك أحقق قدراً من رغبة السائل .

لقد وقف بين الشاعرين حد يحول دون التقائهما عند هدف مشترك ، فاختلاف النشأة ودرجة الثقافة والبيئة والوراثة ، كلها عوامل تؤثر على نتاج وعطاء الشاعر ، ولكل من الشاعرين مدرسته وقاموسه وموسيقاه ، وألفاظه وجرسه وأهدافه ، وهذا أمر كما رأيتم ، يتطلب كتاباً ، يشرح من خلال شعر الشاعرين ، اتجاهاتهما وخصائصها .

هذه الخلافات بين الشاعرين أثرت فى شعر حافظ الذى نشأ نشأة عوز ويتم وحاجة . كفله خاله حتى أنه عندما أحس بأنه عالة عليه ، هجر منزل خاله فى طنطا ليذهب إلى القاهرة وترك ورقة كتب فيها :

ثقلت عليك مؤونتى إنى أراها واهيه
فافرح فإنى ذاهب متوجه فى داهيه

وقد أحس بالبؤس فأحسن التعبير عنه ، وقد ترجم رواية البؤساء لفيكتور هيجو حيث استهواه مضمونها ، وما تحمله بطلها من شظف العيش وضن النصيب ، وقد عبر حافظ عن ذلك أبلغ تعبير عندما وصف سعيه ودوام فشله فيه بقوله :

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما وعدت وما أعقبت إلا التندما

ونشأته فى كفالة خاله بسبب يتمه ، حملته على الإحساس فى التعبير عن ليتامى والأيامى . وأحس الظلم فحمل على الظالمين . وكان من غلاة الوطنيين ، حيث قد اكتوى بنار المستعمر ونار الحاكم المستبد .

وثار فى وجه الظلم عندما كان ضابطاً فى الجيش فى السودان ففصلوه وأعادوه إلى مصر وهو خالى الوفاض ، يواجه الحاجة والعوز ، فى رجولة وعفة يد لولا ما كان يحيطه به الإمام الشيخ محمد عبده . بمساعدات لا تجرح شعوره كالتصحيح فى بعض الصحف أو مراجعة بعض الكتب .

ولكن موضوعنا اليوم يقتصر على إنسانية شوقى من خلال شعره ومن خلال جولاته فى مشرق كان أو فى مغرب .

لقد نشأ شوقى نشأة مختلفة كل الاختلاف ، فقد ولد فى بيت ميسور الحال من أب كان يعمل فى معية السلطان فى إستانبول أو فى قصر الخديو إذا عاد . وتوفيت والدته وهو صغير . ولما كان أبوه بعيداً فى إستانبول ، فقد كفلته جدته لأمه . وهذه الجدة هى السيدة (تمزار) معتوقة إبراهيم باشا والى مصر .

وهى من شبه جزيرة المورة . وقد كانت هدفاً للمغيرين الذين اتخذوا من خطف الفتيان والفتيات الجميلات مهنة يتكسبون منها ببيعهم أسراهم بأعلى الأثمان .

وكانت جدته من نصيب الوالى إبراهيم باشا الذى لم تلبث طويلاً عنده حتى أعتقها وهى فى سن العاشرة ونزلت عنده بمنزلة بنت من بناته . حتى أنها لما تزوجت وأنجبت كانت تتردد على قصر إسماعيل ، وكانت تصطحب معها أحمد شوقى .

وكان الصغير قد أصابته علة تركت عينيه فى اختلاج دائم وينظران دائما إلى أعلى ، الأمر الذى حمل الخديو إسماعيل على سؤال الجدة عن هذا الشأن الغريب ، فأجابت بأنه ولد هكذا ، فقال إن دواءه عندى ، ثم قام بنثر جنيهات ذهبية على البساط فهبط الطفل إلى الأرض وراح وراء بريق الذهب يجمع ما استطاع جمعه فى كفه الصغيرة ، وانخفضت نظراته وصار ينظر لفترة قصيرة نظرة طبيعية ولكنها سرعان ما تعود لحالتها الأولى .

وقال الخديو للجدة أرأيت كيف استطعت أن أشفى بعض الشىء ما ألم بالطفل ، فقالت الجدة : ومن أين لنا بهذا الدواء يا مولاى بصورة دائمة ، فأجابها : إيت به إلى صيدليتى هذه – وأشار إلى جيبه – وهذا هو دواؤه ، وهو معى كلما حضر.

* * *

وعندما صار فتى وجد أنه ولد وسط معترك من المشاكل الدولية المتأصلة . فقد كانت روسيا فى حرب مع تركيا ، وكانت تركيا دولة الخلافة ، وكان المصريون يعطفون على تركيا لهذا السبب ولروابط أخرى ووشائج القربى والنسب بين الكثير من العائلات فى البلدين .

وقامت خلافات بين فرنسا وإنجلترا بلغت حد الالتحام بالسلاح وكان هدفها احتلال مصر ، وتيسر لفرنسا أن تحتل مصر فى عهد نابليون فترة قصيرة ، ما لبثت بعدها أن انسحبت تحت ضغط الأسطول البريطانى ، وكانت بريطانيا تريد أن تحتل مصر لتأمين طريقها إلى الهند ، وكانت تريد أن تزيح إسماعيل من طريقها ، وتم لها ذلك وجاء من بعده توفيق الذى قامت فى عهده ثورة أحمد

عرابى التى لم تنجح بسبب الخيانة ، وبالتفاوت الكبير بين القوتين .

كان الإنجليز قد وعدوا بالجلاء ، ولكنهم نكثوا بعهدهم ، وأحس المصريون من كل ما كان يحيط بهم أنهم مطمع للدخيل من كل جنس ، فدبت فى أرواحهم مشاعر متأججة ، تريد التحرر من ذل العبودية والاستعمار والاستغلال ، فتزايد النشاط والدعوة إلى بعث الحضارة الإسلامية والأدب العربى فى مصر ، فهما الطريق إلى بعث الهمم والتذكير بما كان لأسلافهم من عزة ونخوة وحرية ، ومن الطبيعى أن تكون الكتابة والنظم والخطابة والندوات والاجتماعات هى السبيل إلى كل ذلك ، وكان الشعر أسبق كل هذه الوسائل إلى القلوب لما احتواه من موسيقى تعين على حفظه وترديده وسط هذه العوامل السياسية والاجتماعية .

ولد شوقى فى عهد إسماعيل ، وكان طبيعياً أن تتأثر نفسه الحساسة بالبيئة الاجتماعية والسياسية ، كما كان طبيعيا أن يكون هو بالذات ، الذى يتلقف أبعد الأحداث وأخفت الأصوات ، أكثر ممن حوله تأثرًا بهذه الحوادث ، وبهذه البيئة المشحونة بوقائع فى طيات الغيب ، لما حوته نفسه من شفافية ورقة .

وهكذا كان لكل هذه العوامل أثر بارز فى شعره وشعوره ، لازمه طوال حياته ، فقد أحس أنه موكل بأن يكون لسان أمته العربية بنظمه البعيد الأثر .

وقد دخل شوقى مدرسة المبتديان الابتدائية فى مصر ثم التجهيزية وهى الثانوية ثم مدرسة الحقوق الخديوية . وحدث أن زار الخديو توفيق مدرسة الحقوق ، وكان شوقى وهو طالب بها قد بدأ يمارس كتابة الشعر ، وعنّ له أن ينظم فى هذه المناسبة أبياتاً من الشعر ، نالت استحسان توفيق ، فأمر بأن يرسله

ألا فاسقنى خمرًا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرًّا إذا أمكن الجهر

هو نفس أبى نواس الذى لَبِسَ لبوس الحكماء وذهب يقول :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

أو هو الذى كان يبتهل قائلا :

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

وهناك رأى لباحث كبير فى مثل هذه الشئون النفسية ، ينطوى على منطق صائب وتحليل سليم ، فهو يقول إن هذا الأمر ليس ازدواجاً فى الروح . وما الحكمة الزاهدة التى هبطت على أبى نواس ، إلا فتور نفس أجهدتها اللذة والمتعة فأضعفتها ، فأخافها الضعف الذى ألجأها إلى حمى الحكمة والزهد وإلى استغفار الله والتوبة إليه .

وشوقى – كما ذكرنا – من هذا القبيل ففى شعره صورتان من صور الحياة ، يقوم كل منهما بدوره مستقلا عن الآخر كأنما قائلها شخص أجنبى تماماً عن الأول ، فأنت تقرأ له :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

أو يطالعك من شعره قوله :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق

وهنا ترى نفسك فى حضرة شاعر مغرم بالحياة ومتاعها وأنعمها ، ثم لا تلبث أن ترى صورة مخالفة تردد فى خشوع :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

أو تراه فى موضع آخر يقول فى نهج البردة :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم
يا نفس دنياك تخفى كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم

إلى أن يقول :

لزمت باب أمير الأنبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

وشوقى فى يقينى وهو يتجسد هاتين الشخصيتين ، إنما يكشف عن دخيلة نفس تمتلئ بالحياة والخيال ونور الإيمان والتعلق بأسباب السماء ، وإعلاء كلمة الحق ، لأنه قبل كل ذلك وبعد كل ذلك إنسان يفيض حسه بالإنسانية وبكل كوامن النفس البشرية التى تعتريها القوة كما يعتريها الضعف .

* * *

والشاعر الإنسان فى مثل نشأة أحمد شوقى ، وما حباه الله به من فيض غامر فى العاطفة والإحساس والخيال الرفيع والصدق فى التعبير ، يتدرج مع تاريخ وطنه منذ عهود الفراعنة وما تعاقب على مصر من رفعة تارة وانخفاض تارة أخرى ، ويقف وقفة المصرى الصادق العاطفة ، حيث تفيض عليه ربة الشعر بما يؤنسه فى هذا الترحال من قصص يرويها عن رمسيس وأبى الهول وتوت عنخ

فى بعثة إلى فرنسا ليدرس القانون فى إحدى كلياتها ، وليعيش فى جو وبيئة فنية تتفق وموهبته الباكرة التى انسابت فى بواكير شعره ، مبشرة بمولد شاعر عظيم ، وللبيئة أثرها على الفنان ، والاختلاط بأجناس أخرى والاطلاع على أدب الغرب ، والحياة النضيرة الفنية بين مسرح وموسيقى ورقص تعبيرى وغناء ، كل ذلك ينطبع أثره على الفنان ، ويكون بمثابة الوقود الذى يدفعه إلى الأمام بخطى واثقة سليمة .

على أن شوقى برغم كل ما أحاط به وهو فى أوربا ، وبرغم تأثره بالوسط الأوربى والحياة الأدبية الثرية والشعر الأوربى الرقيق ، وبرغم تأثره البارز بذلك ، فإنه لم ينس أنه شرقى عربى جاء ليغترف من منهل عذب يستعين به على ماكان يعد نفسه له . وكأنما جمع فى ذلك بما فى بناء معمارى عربى الطراز فى نقوشه وعمارته وزخارفه . وما احتواه من طرائف غربية وصور فنية رقيقة الصنعة . انتثرت فى أبهاء وغرف هذا البناء الشرقى . فأكسبته طلاوة ورقة وجمالا ، من صور زيتية إلى طنافس وثريات وتماثيل وتحف بديعة الصنعة .

ولهذا نجد أن تأثره بالبيئة الأوربية لازمه طول حياته وأمده بروافد جديدة على الشعر العربى ، ككتابة المسرحية الشعرية والأوبريت وحكايات على ألسنة الحيوانات مثلما كان يصنع لافونتين ، وطرقه باب الأغانى بأخيلة حديثة على ماكان ينظم فى عصره أو ما سبق عصره أو ما جاء بعده ، مثل أغنية (فى الليل لما خلى) أو أغنية (بلبل حيران) . إنها قصص غنائية كأوبريت صغيرة فيها البداية والمضمون والختام ، وهكذا نراه من بين الشعراء فى عهده قد أضاف أوتاراً جديدة على قيثارة الشعر المألوفة .

والقارئ لأشعار شوقى تستوقفه ظاهرة عجيبة . إنه يقف أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف ، لا صلة بين أحدهما والآخر ، إلا أن كليهما شاعر مطبوع يصل فى الشعر الإنسانى إلى علياء سماواته ، وأن كليهما مصرى عربى شرقى يبلغ حبه لوطنه مرتبة القداسة والتفانى والعبادة له لأنه من خلق الله . أحدهما مؤمن عامر القلب والنفس بالايمان ، وإنسان يقف نظمه ومشاعره على كل ما يتأثر به وجدانه ، ما اقترب منه مما يثيره ، أو ما ابتعد عنه غاية البعد ولكنه يتصوره وتحس روحه الشفيفة به .

وهو حكيم يرى الحكمة نبراس العقل والإيمان ، وهو متعصب للغته العربية ، حريص على أن تأخذ مكانها بين أرقى لغات الأرض . فإنه يراها لغة تتسع بكل صورة وكل فكرة وكل معنى وكل خيال .

أما الرجل الآخر فهو رجل دنيا ونعيم ، يرى أن الله خلق النعيم فى الدنيا ودعا الناس إلى التمتع به ، فهو نعيم كفله الله لأبناء الحياة ليأخذوا منه بنصيبهم .

وهو متسامح تتسع نفسه للإنسانية والوجود كله .

وهو مجدد فى اللغة لفظاً ومعنى ومبنى ، لأنه يراها كما يرى كل ما فى الوجود ، كياناً حياً يجرى عليه ما يجرى على الأحياء .

نخلص من هذا إلى أن الازدواج الظاهر فى شعر شوقى بين دين ودنيا ، قد لازمه منذ أول شبابه حتى آخر عمره إلا قليلا .

وليس للازدواج النفسى عند الشعراء ، أو انقسام الشخصية عند الشعراء دخل فى هذا الشأن ، وأمامنا مثل واضح فى أبى نواس ، وما كان يقوله من شعر يتردد بين الشأنين ، فهل أبو نواس الذى قال فيما قال :

آمون وآمون وفرعون موسى ، إلى أن يصل إلى مصر العربية .

حيث تبين لقارئ نظمه ، روحه الإنسانية الشفيفة وهى تغوص ليستخرج اللآلئ من أعماق الأحداث ويعرضها فى موكب زاهر براق يبهر الأنظار ويوقظ الأفكار ، وكأنما هو قيثارة إلهية يدفع إليها كل جيل بأصفى نسائمه ، ليتغنى ويشدو بأهازيج النصر تارة ، وبترانيم المسرة طوراً وبشجو الألم أحياناً عندما يتعرض شباب ورجال جيله إلى منازلة الغاضب وما يلقونه على يديه من قهر وطغيان .

وهو فى عرضه لآثار بلاده وما حوته من إعجاز وطلاسم تجل عن كل وصف ، يقف موقف الإنسان من كل هذا الإبداع ، فلقد خلع القدم على هذه الآثار رداء البقاء والثبات ، وتحدى الزمن وطاول معاول هدمه ، وهذه أمور أمدت شوقى وروح شوقى وشاعرية شوقى الإنسان بما يفيض به الوحى على روح شاعر الشرق الذى شاءت إنسانيته أن يتحدث مع هذه الآثار ، وأن يزهو ببقائها ثابتة لا تزعزعها الحوادث أو مر العصور .

وله فى العلم والفن والعمل والجمال والترحال آيات بينات ، ينساب فيها روح الإنسان الداعى إلى التمسك بالخلق الصالح على اعتباره قوام الحياة فى الأمم ، وهو يرى أن الخُلُقَ القويم خيرٌ من الخَلْقِ القويم . وله بيت فى قصيدة طويلة أصبح يتردد على كل لسان ، كما غدا مثلا وبات دستوراً يدبر وينظم ويحكم .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولم يكن شوقى شاعرًا لمصر وحدها . فهو شاعر ينبض قلبه الكبير بحب

الإنسانية أينما وجدت على أى صورة تكون ، وهو لذلك لا تراه يفرق بين الأوطان ، فهو هو شاعر مصر كما هو شاعر العرب ، وشاعر الشرق ، وشاعر المسلمين ، وكل الأديان .

وهو فى موقفه من هذه الأحاسيس ، أشبه ما يكون بالرادار الإنسان ، الذى ترتسم على محيلته كل ما يقع فى أى بقعة من بقاع الأرض من نكبات وأحداث ، أو من اعتزاز باختراع أو اكتشاف يدعو إلى الافتخار ، ويطرح فى شعره المعبر ما أثار وجدانه حيال هذه الأحداث .

فى العشرينيات ، وقع فى طوكيو زلزال عنيف ، ما إن بلغ نبؤه مسامع الشاعر الإنسان شوقى واطلع على فداحة الكارثة ، حتى بادر بنظم قصيدة طويلة عن النكبة ، بدأها بقوله :

قف (بطوكيو) وطف على (يوكوهاما) وسل القريتين أين القيامة
قف تأمل مصارع القوم وانظر هل ترى من ديار عاد دعامه
خسفت بالمساكن الأرض خسفاً وطوى أهلها بساط الإقامه
دولة الشرق وهى فى ذروة العز تحار العيون فيها فخامه

إلى أن يقول :

لو تأملتها عشية جاشت خلتها فى يد القضاء حمامه

ثم يمضى ليقول :

تجد الأرض راحة حيث سالت راحة الجسم من وراء الحجامه
مالها لا تضج مما أقلت من فساد وحملت من ظلامه

سؤال من أحد الحاضرين :

لقد علمنا كيف أن شوقى درس فى فرنسا وارتوى من المدنية الغربية وانغمس فى كل ما يبهر منها وما يملأ النفس إعجاباً وتقديراً ، فكيف تسنى له بعد هذه البداية ، أن يتعمق اللغة العربية ، وينظم الشعر العربى الذى تميز بديباجة قوية النسج وبألفاظ رقيقة الجرس . وببلاغة فيها البيان والبديع والمعنى الجليل والخيال الفريد حتى بز من سبقه أو من خلفه وأتى بعده . . هذا إذا تركنا جانباً نشأته فى بيئة بعيدة عن الاهتمام بالعربية .

المحاضر :

أحس شوقى بعد عودته إلى مصر من بعثته فى فرنسا ، أنه ليس شاعر مصر وحدها التى ينتمى إليها ، فقد كان قلبه وأحاسيسه تجيش بأخيلة وصور ومعان ولغة وبيان ، تتسابق لتحتل إرادته التى لا تلبث أن تطيع تلك الأحاسيس الجائشة ليطرحها شعراً علوى النسق والنسيج ، فهو إذن موكل برسالة ، وهو إذن ممن أمسكت بهم شرارة الفن المقدسة ، فكيف يقنع بأن يكون شاعر مصر . إنه شاعر العرب أجمعين وشاعر المسلمين وشاعر كل العقائد وشاعر الشرق ، ووجد أن هذه المسئولية التى هى إرادة علوية مقدسة تتطلب منه أن يوفر لها أثمن ما لديه من أخيلة وصور ومعان ، ليكون شاعر اللغة العربية السليمة ، طالما كان هو لسانها وخطيبها والسباق إلى ذكر مناقب العرب ، وما كان لهم منذ الفتح الإسلامى من عز وسؤدد ، ومن آثار ما تزال شاهدة على ما كانوا عليه من قوة ومعرفة وحضارة ، كان عليه أن يتزود من كتب الأقدمين

ودواوين الشعر العربى الرصين ، منذ العصر الجاهلى حتى العصر الإسلامى عندما كان فى مجده التليد .

ومما لا شك فيه أن الحكمة التى يستمدها شوقى من إنسانيته التى تفيض بها مشاعره ، تجدها تسرى فى وصفه وفى غزله وفى رثائه وفى تهانئه وفى استخلاص العبرة من الأحداث التى تقع حوله ، بلسان عربى فصيح مبين ، منذ أن كان هو سجل هذه الأمة العربية والمتحدث عن أدق الأحاسيس الإنسانية التى يراها فى زهر أو جماد أو إنسان .

وهو فى كل ما نظم لا يشعر له بأنه تأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار ما تحتاج إليه الأمة العربية ، من نصح أو إرشاد أو تقليد لفضيلة يحسن انتهاجها .

ولقد نرى شوقى يغلو فى شرقيته وعربيته أحياناً ، ولقد نراه يتعمد ذلك فى لفظه ومعناه ، ومرد ذلك إلى ما رآه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة التى تتحكم فى نفوس كثيرة ، وتعمل على إهمال ما خلف السلف من تراث ، والأخذ بكل ما هو جديد أو مستحدث .

وهو فى بعثه للقديم إنما يصدر عن إنسانية تتشبث بالحياة ، وبالقديم ، فهو إدخال ما يزيد هذه الحياة نضارة وقوة وازدهاراً ، وهو ما رآه واجباً يحمل هو مسئوليته ويتولى شأن تقويمه .

فهو يعمد إلى بعث القديم من الألفاظ التى نسيها الناس ، وتنكروا لها . وسر ذلك عند شوقى ، أن البعث وسيلة من وسائل التجديد وعودة الروح . بل قد يكون البعث أكثر وسائل التجديد انتشاراً ونجاحاً والتجديد له ، إلى جانب ربط السلف بالخلف ، معنى إنسانى يتمثل فى الوفاء وتوقير القديم .

وأما موقفه من مذبحة دنشواى فقد نظم بعد مرور عام على هذه الحادثة الأليمة ، بعد ما نظمه عند وقوعها ، قصيدة ضمت بكل الإباء ، طلب العفو فيها من سجنائها ، مستعيناً بالأثر الذى تركته القضية فى الضمير العالمى ، كما أثارت مناقشات فى مجلس العموم البريطانى كان من نتيجتها إبعاد كرومر من مصر :

يا دنشواى على رباك سلام ذهبت بأُنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم فى اللحود أهِلّة ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها وبأى حال أصبح الأيتام
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها بعد البشاشة وحشة وظلام
ياليت شعرى فى البروج حمائم أم فى البروج منية وحمام
(نيرون) لو أدركت عهد (كرومر) لعرفت كيف تنفذ الأحكام

* * *

ولم تكن تمر بالعالم أحداث من كوارث طبيعية أو حربية أو اجتماعية ، إلا وشارك بنظمه داعياً جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر والحكومات والشعوب إلى مد يد العون لهؤلاء البؤساء الذين أصابتهم محن هذه الأحداث .

هذه المشاركة الوجدانية للمصابين ، لا تنبع إلا من قلب امتلأ بحب الإنسانية الشاملة ، التى لا تفرق بين دين ودين أو جنس وجنس أو لسان ولسان . إن البشر كلهم عنده سواء ، إنهم أبناء الإنسان الأول آدم . وهم خلق

الله العلى القدير الذى يسبح دائماً بحمده ويستزيد من رضاه على خلقه .

أما صوره الدينية الشعرية التى شدت بها الراحلة الكريمة السيدة أم كلثوم ، فإنها تفيض بنفثات روح إنسانية وسبحات قلب يدعو إلى تعظم الله وإشاعة المحبة بين خلق الله ، ولقد تسنى له بهذه القصائد أن ينشر معانيها إلى العامة قبل الخاصة بفضل ما أودعه فيها من تهجد وابتهال ، وبفضل ما خلعه الموسيقار القدير رياض السنباطى على ألفاظها ومعانيها من جلال وجلاء ، وكان الصوت المخملى النادر الذهبى لأم كلثوم ، هو الموصل بحلاوة إنشاده وطلاوة إيقاعاته وسبحاته ، لكل الآذان وكل الأفهام مهما ابتعدت المعانى من المستمعين الذين كانوا يدركون من قدرة الصوت ورقة اللفظ ورشاقة النغم ما لا يستطيع الإنشاد وحده أن يقوى عليه .

وماذا أقول وماذا أدلى فيما نظمه فى سيد الخلق النبى الكريم محمد عليه الصلاة والسلام :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

أو نظمه :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا

وفيها يقول :

ولا ينبيك عن خلق الليالى كمن فقد الأحبة والصحابا

وشعر شوقى مليء بالأمثلة الدالة على قدرة فائقة لا تجارى فى بعثه لألفاظ قديمة ، وإفاضته عليها من رقيق شعره ما يجعلها تتسع لما لم تكن تتسع له من قبل ، من المعانى والأخيلة والصور ، وهكذا نراه خلاقاً ومبدعًا وباعثًا الحياة فى ألفاظ وجمل وتراكيب أوشكت أن تندثر ، فمضى كالطبيب الماهر يضفى عليها من عرفانه وقدراته ، بما يمدها بالحياة ، لأنه محب للحياة ، ولأنه ينظر إلى كل ما حوله بمنظار إنسانى ، تشيع فى جوانبه الحركة والقوة والنماء ، فهو إنسان يحب كل إنسان ما دام هذا الإنسان قادراً على العطاء الطيب ومتمتعًا بالخلق السوى ، فهو يرى أن الأخلاق هى أصل الحياة . وركيزة الإنسانية . وقوام كل عمل جليل .

وهو يمجد كل شيء يعطى ويبعث الحياة ويمقت كل ما يدمر الحياة أو من يدمرها ، ويهلك من على الأرض بغرض القوة والسلطان ، ولأنه شاعر فهو محب للسلام وللجمال وللخير ، ويرى الحياة من حوله ربيعًا مزدهرًا بأينع الأزهار ، تؤنسه زقزقة العصافير ونواح الأطيار ، اسمعه فى موقف من هذه المواقف :

وشدت فى الربا الرياحين همسًا كتغنى الطروب فى وجدانه
نِعَمٌ فى السماء والأرض شتى من معانى الربيع أو ألحانه

المحاضر :

أستأذنكم أيها السادة فى أن أنتقل بكم إلى جانب من جوانب شوقى الإنسانية فى مواقف كانت تثير نفسه وتحمله على النظم ، وقد كان كل ما ينظمه

يسرى مسرى النسيم على كل لسان . وكانت قصيدته التى تنشرها صحيفة من الصحف تتلقفها الأيدى ، وتصبح حديث المجتمع ومثار مناقشاته ، وهو أمر كان يعمل له المستعمر ألف حساب .

ففى مناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل باشا زعيم الحزب الوطنى ، نظم قصيدة تناول فيها ما أصاب البلاد عام ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناصر ، وأشار إلى تصريح ٢٨ فبراير الذى تضمن التحفظات الأربعة وهى التى قيدت استقلال البلاد وجعلته مسخاً ، كما تناول موقف بعض الزعماء حياله ثم ذكر ما تحتاجه البلاد ونصح باستخدام وسائل للإصلاح ونبذ الخلاف . ذهب يقول :

إلام الخلف بينكمو إلاما ؟ وهذى الضجة الكبرى علاما ؟
وفيم يكيد بعضكمو لبعض وتبدون العداوة والخصاما ؟

إلى أن يقول :

وكانت مصر أول من أصيبتم فلم تُحص الجراح ولا الكلاما
إذا كان الرماة رماة سوء أحلوا غير مرماها السهاما
طلعنا وهى مقبلة أسوداً ورحنا وهى مدبرة نعاما
ولينا الأمر حزباً بعد حزب فلم نك مصلحين ولا كراما

إن شوقى فى هذا الموقف يقف موقف المعلم الإنسان الذى يخشى عاقبة هذا التناحر ويبشر بأوخم العواقب ، وما له من مقصد أو غاية إلا رفعة الإنسان .

أو نظمه :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

* * *

وفى كل هذه القصائد النبوية نجد الحاسة الإنسانية بارزة بروزًا محسوسًا ملموسًا ، لا ينسى فيها بطر الغنى ، أو ينسى حاجة الفقير.

ولولا ما امتلأ به قلبه من الإيمان ، ومن العالمية فى الأديان ، وفى حق كل مخلوق فى التمتع بما خلق الله ، لما استطاع أن يبلغ هذا الشأن وهذه الروعة ، وفاقد الشىء لا يعطيه .

أحد الحضور :

أستأذن الدكتور المحاضر ، فى سؤال يلح علىّ كلما قرأت لشوقى – وما أكثر ما قرأت – شعرًا عربيًا بأفصح لسان وأبدع بيان فأسأل نفسى من أين لشوقى كل هذا العلم بالفصيح من اللغة ، والنادر من البيان ، والرقيق من الديباجة ، وهى أمور تتطلب التخصص والقعود للتفرد فيها ، وهو قد ترعرع فى بيت عز ويسر ، يعفيه مشقة البحث والاجتهاد ، ويوفر له مطالب الحياة من أقرب سبيل وأهون وسيلة ، هذا إلى جانب أنه تربى فى مطالع شبابه تربية أوربية ، وتلقى العلم فى معاهد فرنسا ، وعاد وهو على هذه الحالة من البلاغة والفصحى السليمة القويمة .

الحاضر :

لم تكن نشأة شوقى فى قصر والديه ، محاطاً بكل ما تصبو له النفس ، بمانعة من تحقيق صبوات نفسه ومحبته للغة العربية ، والغوص وراء دورها ، ما دامت قد استهوته وملكت عليه كل مسالك تفكيره .

وحبك الشىء يحملك على أن تستهين بكل مشقة لبلوغه .

وقد قال شوقى فيما بعد فى البوصيرى ، عندما نظم نهج البردة ، التى حوت أشرف المدح فى سيرة الرسول الكريم :

مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يملى صادق الكلم

وفى تصورى أن الفترة التى أمضاها شوقى فى بعثته بفرنسا لم تكن حائلا له من بلوغ هواه من الاطلاع الدائب على كنوز اللغة العربية وآدابها ، ما دامت نفسه تواقة إلى هذه الرغبة ، متلهفة على بلوغها ، فالكتب العربية بأقلام أفذاذ الكتاب فيها ، فى متناول يده مهما شط المزار وابتعد أو اغترب ، طالما كان حبه العارم لبلوغ هدفه هو شاغله ومهوى قلبه وعقله ونهاه ، وكان ميله هذا قد بدأ باكرًا فى حياته . وقد تحرك هواه للشعر منذ مطلع حياته . فنظم قصيدة عندما كان يطلب العلم فى مدرسة الحقوق الخديوية أمام الخديو توفيق ، وكانت من حسن الطالع قد وجدت سبيلها سهلا ليناً إلى قلب الخديو الذى أمر بإرساله إلى فرنسا فى بعثة لاستكمال دراسة القانون ، وليَنهل من موارد فرنسا العذبة ، وما بها من مجالات تجمع بين المتعة والعلم ، فما شئت من نعيم أو رغد العيش أو المرح الشجى ، طوع بنانك ما دمت قادراً ، وما شئت من علم وفن وأدب فى أعلى ذراها منتشرة فى كلياتها ومجامعها وندواتها ومعاملها ، وما شئت من فنون

المسرح والتماثيل والصور ، فوق العدد والحصر ، وما شئت من رياض ومعان تحرك الوجدان وتوحى بأجمل الكلام نثراً كان أو شعرًا ، تلقاه أينما وليت وجهك ، هذه الفنون جميعها إلى جانب ما حواه قلب شوقى من حب عارم للغة العربية ولنظم الشعر ، كانت هى الخلفية والقاعدة والعون فى ترقيق أى حس كان شوقى فى غنى عنه ، لأنه ولد مؤهلا لقول كل جميل ، هذا إلى جانب أنه نذر نفسه لأن يتبوأ من دولة الشعر أعلى مقام ليتحقق له بذلك أن يكون شاعر العرب ، منذ أن اجتمعت له موارد ومواهب وهواتف كانت قمينة بأن تأخذ بيده إلى هذا المرتقى السامق الرفيع .

فكيف يتوانى عن أن يستكمل كل مستلزمات هذا المطلب العسير ، مهما كلفه أمره من اطلاع دائب دائم ، ومن رجوع إلى موسوعات القواميس وجوامع الكلم ودواوين الشعر منذ العصر الجاهلى حتى شعر العصر الوسيط وما تلاه ، وكان أبو الطيب المتنبى شاعره الأثير ، الذى جذبه إليه حبه للحكمة والدأب الدائم فيما يصبو إليه ، وما يتميز به شعره من ديباجة رفيعة النسج ومن لفظ تترقرق فيه موسيقى محببة شجية .

وإذا كان ابن رشيق – شيخ نقاد عصره – فى كتابه (العمدة) ، قال عن المتنبى :

« حتى ظهر المتنبى ، فملأ الدنيا وشغل الناس » . فإنى أعتقد وأجزم بأن ابن رشيق لو شهد عصر شوقى لقال :

« حتى ظهر أحمد شوقى فشغل الدنيا وبهر الناس » .

وكيف لا يبهر الناس من نظم فى آثار الفراعنة .

صور تريك تحركا والأصل فى الصور السكون
ويمر رائع صمتها بالحس كالنطق المبين
صحب الزمان دهاتها حيناً عهيداً بعد حين
خدع العيون ولم يزل حتى تحدى اللامسين

أو الذى يقول أو يصور فى دمر (إحدى ضواحى دمشق) هذه الصورة :

والحور فى (دمر) أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد فى جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان

وهو يصف شجر الحور بالنساء الحور والراقصات ، فشجرة الحور تمتلئ جذورها وسيقانها بالغصون والأوراق ، فى حين تخلو أعاليها من هذه الأوراق ، شأن الراقصة التى يتعرى نحرها وتكتسى ساقها ، نرى فى هذين المثلين أو الصورتين الناطقتين النابضتين بالحياة التى أودعها فيها الشاعر الإنسان الفنان القدير ، إن هذا الشاعر يكلف بالخلق وبعث الحياة فيما يصف أو يحكى .

لقد بلغ الذروة عندما بعث بالحركة والحياة فى آثار الفراعنة ، حتى جعلها تخدع العيون النواظر ، وجعلها فوق ذلك من فرط الإتقان والروعة ، تتحدى اللامسين .

وكأنما أراد الله فى محكم عدله فى كل الأمور ، أن يمنح شوقى كل هذه المواهب التى تنطوى على شعر موسيقى ، وذوق رفيع ، ولفظ جزل ، وديباجة قوية النسج ، فريدة النهج ، إلى جانب إنسانية تفيض بها مشاعره وتجرى فى

أحاسيسه ، ارتفعت به إلى مصاف المصلحين الداعين إلى الخير وإلى نبذ الشر ، أراد الله – كما ذكرنا – أن يحرمه من القدرة على قراءة ما ينظم لعلة عصبية كانت تلازمه وتعتقه عن القراءة من الورقة المعدة للإلقاء ، بسبب اختلاج عينيه وعدم ثباتهما ، مع النظر إلى أعلى ، دون ما استقرار .

ومن قبله فقد (بيتهوفن) سمعه فكان يمتع سامعيه بالنادر من سيمفونياته دون أن يقدر على سماع عزفه ، مكتفيًا بشعوره بعطائه الجيد النادر المثال .

من أجل ذلك تعذر على شوقى أن ينشد شعره مما حمل بعض الألسنة الحاسدة على نقده والطعن فيما لا قدرة ولا يد له فيه ، الأمر الذى حمل شاعر النيل حافظ إبراهيم إلى أن يرد عنه شر هذه الألسنة بقوله :

يعيبون شوقى أن يرى غير منشد ... وما ذاك عن عى به أو ترفع
وما كان عيبًا يجىء بمنشد ... لآياته أو أن يجىء بمسجع
فهذا كليم الله قد جاء قبله ... بهارون ما يأمره بالوحى يصدع

ومن الحكم البالغة قولهم « إن القدر يعطى على قدر ما يأخذ » .

وقد كان المغفور له الكاتب الكبير فكرى أباظة والدكتور الأديب سعيد عبده من المنشدين لشعره فى المحافل والندوات .

* * *

ويجدر بنا ونحن بسبيل تحليل نفسية أحمد شوقى الشاعر الإنسان ، أن نذكر أنه كان كبير الإيمان ، والإيمان مبعث كل الفضائل ، والرجل المؤمن يخاف الله ويعطف على البائس ويعين الضعيف ، ويسأل الرحمة بالمكدودين الكادحين ،

حتى لتظن أنه موكل بالدفاع عن فريق كبير من البشر ، حرموا الحق فى الحياة ، وإن كان لهم فى كافة الشرائع ، وفى منطق الإنسانية ، نصيب فى أموال الأغنياء ، فلا يصح فى العقول أن يموت ثرى من التخمة ويموت فقير من الجوع ، مما حمله على أن ينظم أبياتاً فى قصيدة (ولد الهدى) تناولت هذه العاطفة الإنسانية الكريمة :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة ... بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد وهى حقيقة ... نادى بها سقراط والقدماء

إلى أن قال :

الله فوق الخلق فيها وحده ... والناس تحت لوائها أكفاء
الاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة ... وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة ... لا منة ممنونة وجباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله ... حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل فى حق الحياة سواء

إنك تحس وهو فى موقف الدفاع هذا عن حق الفقير فى مال الغنى ، عن طريق الزكاة ، التى هى ركن من أركان الإسلام ، بأنك أمام إنسان يسمى إلى عراقة فى الإنسانية وأصالة فى اختيار اللفظ والمعنى . بحيث لا يشعر الفقير بأنه يسأل له إحساناً . ولكنه يشعره بكرامته وبحقه فى مال الغنى إحقاقاً للحق وتحقيقاً لشريعة الله .

أحد المستمعين :

لا نشك فى إنسانية شوقى التى جعلته على أن يشارك ويسهم بنظمه فى كل حدث يدعو إلى البذل والعطاء ومد يد العون ، غير أن العصر الذى عاشه شوقى لم تكن وسائل الإعلام والنشر منتظمة ومتنوعة أو قادرة على إيصال ما ينظم لكافة الناس ، فكيف تسنى للناس وللأقلام وللمتابعين للحركة الأدبية ، بما تضم من مقرظين أو ناقدين ، أن يلموا بما حواه شعر شوقى من أهداف بعيدة ، ومرام سامية ، ربما تفرد بها بين الشعراء ، منذ أن كانت الحكمة والدعوة للوئام وحب الخير والعطف على الكادحين والتحرر من كل قيد يعترض الحرية ، ومنذ أن كانت كل هذه الصفات والمزايا تنساب فى شعره كعروق الذهب فى مناجمه أو حبات اللؤلؤ فى العقد المنظوم ، وكيف يتسنى العلم بكل ذلك فى أقصر وقت وبأسرع وسيلة ؟ .

الدكتور المحاضر :

هذا سؤال جاء فى حينه قبل أن ندخل إلى عالمه الإنسانى الكبير كعائل يتعلق بأبنائه وأسرته والمقربين إليه ، وكعاشق لوطنه وللأمة العربية جمعاء ، وكأخ تحس الفرحة فى تهنئته لأحد الأصدقاء بخير ناله ، كما تحس الحسرة والألم اللافح عند مواساته لصديق نزلت به مصيبة . إنه فى إخوانياته إنسان . قبل أن يكون خليلا أو خدناً أو صديقاً لأحد من الناس .

أما عن عجبك من كيفية وصول ما ينظم شوقى إلى أسماع الناس ، فى عصر عزت فيه وسائل النشر السريع ، فإنى أعود إلى ما سبق أن ذكرته عن منزلة

شوقى فى عصره ، ووقوفه كالمسجل لأحداث التاريخ وعبر الأيام ، فإن شعر شوقى كان من سلاسته وموسيقاه ، ورقة ألفاظه ، تعيه الذاكرة بأقل الجهد وأسرع الوقت ، فمن فاته قراءته فإنه لا يعدم أحد حفاظ شعره ليسمع منه ما جاءت به ملكته الفريدة فى النظم ومحتواه فى مختلف المرامى الكريمة ، وكانت الندوات الأدبية فى العواصم أكبر عون على هذا الانتشار .

وكان يكفى أن تنشر له صحيفة من صحف الأخبار ، أو مجلة أدبية قصيدة فى شأن من الشئون ، حتى يتهافت عليها الناس ، لتكون سمر المجالس وأنس المتأدبين ومادة للتعليق والحفظ والمناقشة .

وكانت الندوات الأدبية وسيلة كافية لنشر نظمه بين الناس على ألسنة الحاضرين لهذه الندوات وبصورة لا يقلل من شأنها قصور وسائل النشر .

ولعلى أكون بعد ردى على استعلام السائل ، قد بلغت باباً ، تلجه لتتعرف منه على الشاعر أحمد شوقى الإنسان بين أسرته . وكيف كان يداعبهم ويحن إليهم حنين الوالد المحب العطوف السخى فى حنانه والمعطاء فى حدبه على هذه العائلة التى كان يرعاها .

لقد أنجب شوقى الشاعر الإنسان ، ابنين وابنة ، هم على التوالى : على ، وأمينة ، وحسين .

وكان ابنه على دمث الخلق متواضعاً ، حيياً كوالده ، وعاش عيشة هانئة ، والتحق بعد إنهاء دراساته بخدمة السلك الدبلوماسى الذى بلغ فيه درجة سفير . وقد كانت آخر وظائفه فى هذا السلك ، هى عمله كسفير لمصر فى دولة الفاتيكان بإيطاليا .

عندما بشر شوقى بابنه على ، لم تكن الأحداث وقت ولادته بمستقرة أو مستتبة ، مما دعاه إلى أن ينظم مداعبًا :

صار شوقى أبا على فى الزمان الترلى
وجناها جناية ليس فيها بأول

وكان على حبه له وعطفه عليه وحنانه الصادر عن قلب شاعر عطوف إنسان ، يشفق عليه من القادم من أيام لم تكن تسفر عما يختفى فى جوفها من أحداث لا أمن فيها ولا أمان منها .

ونظم فى صدد ذلك :

علىٌّ إذا استشرت أباك قبلا ! فإن الخير حظ المستشير
إذن لعلمت أنا فى غناء وإن نك من لقائك فى سرور
وما ضقنا بمقدمك المفدَّى ولكن جئت فى الزمن الأخير

وقال أيضًا وهو يشير فى لماحية ذكية ، إلى أنه لن يكون وريثاً فى الشعر لأن الله سبحانه هو الذى خلق شوقى وحده لهذه المهمة :

ورزقت صاحب عهدى وتم لى النسل بعدى
هم يحسدونى عليه ويغبطونى بسعدى
ولا أرانى ونجلى سنلتقى عند مجد
وسوف يعلم بيتى أنى أنا النسل وحدى

فيا على لا تلمنى فما احتقارك قصدى
وأنت منى كروحى وأنت من أنت عندى
فإن أساءك قولى كذب أباك بوعد !

* * *

ونشأ على ، كما تنبأ له والده الكبير أمير الشعراء . فلم يكن يعير الشعر أى اهتمام بل لم يكن يحفظ من كل ما نظمه شوقى الخالد بيتاً واحداً ، أما ابنه حسين وهو أصغر أبناء شوقى ، فقد كان يميل إلى الاطلاع على الأدب الفرنسى والأدب والشعر العربى ، وقد نظم قصيدة قصيرة لحنها الموسيقار عبد الوهاب فى الثلاثينيات وغناها وكان مطلعها :

سهرت منه الليالى ما للغرام ومالى
إن صد عنى حبيبى فلست عنه بسالى
يطوف بالحب قلبى فراشة لا تبالى

وعندما بدأ جمع قصائد أمير الشعراء أحمد شوقى لطبعها فى أجزاء الشوقيات الأربعة ، قامت دار الكتب المصرية بالإشراف على ذلك الطبع مستعينة فى مراجعتها بكبار أدباء دار الكتب ، وقد اشترك ابنه حسين شوقى فى هذه المراجعة وخاصة فى الجزء الرابع ، كما ألف كتباً عن والده شوقى .

* * *

أما ابنته أمينة فقد كانت قرة عينه ومبعث هنائه ، كما كانت نبعه الصافى الذى يستقى منه أطهر عاطفة أبوية ، وأسمى محبة تربط والداً بابنته ، وكانت هى

الأثيرة عنده ، فهى الابنة الوحيدة بين ولدين .

ومن عجائب الأقدار أن كانت ولادتها ساعة وفاة والده مما حمله على أن يقول :

فى ليلة سميتها ليلتى لأنها بالناس ما مرت
أذكرها والموت فى ذكرها على سبيل البث والعبرة
ليعلم الغافل ما أمسه ما يومه ما منتهى العيشة

إلى أن يقول :

الموت عجلان إلى والدى والوضع مستعص على زوجتى
حتى بدا الصبح فولى أبى وأقبلت بعد العناء ابنتى
فقلت أحكامك حرنا لها يا مخرج الحى من الميت

وكان لا يفتأ يذكرها كلما مر عام من عمرها ليسجل لها شيئاً من نظمه ، فهو يراها متعة قلبه ومراح نفسه . وراحة عينيه ومقبل هنائه ومبعث وحيه الطاهر الشفيف .

وكان من فرط ولعه وحبه لها ، دائم الخوف عليها والرعاية لها والعناية بها . وعندما أكملت عاماً نظم فيها أبياتاً منها :

أمينتى فى عامها الأول مثل الملَكِ
صالحة للحب من كل وللتبركِ
كم خفق القلب لها عند البكا والضحكِ

وكم رعتها العين فى السكون والتحركِ
فإن مشت فخاطرى يسبقها كالمسكِ
ألحظها كأنها من بصرى فى شركِ
فيا جبين السعد لى وياعيون الفلكِ
ويا بياض العيش فى الأيام ذات الحلكِ
إن الليالى وهى لا تنفك حرب أهلكِ
لو أنصفتك طفلة لكنت بنت الملكِ

• • •

ونحن عندما نتمثل بشعر شوقى فى أولاده ، إنما نكشف عن الإنسان فى شوقى ، وعن الوالد العطوف الشغوف بحب أبنائه حبًّا ملك عليه حياته العاطفية كلها ، وليس من العجيب أن يحب والد أبناءه ، ولكن أن يحب مثل هذا الحب الكبير ، من والد كانت أعباء وظيفته فى القصر ، ومواكبته للأحداث فى أى بلد عربى أو أسيوى يحتاج إلى تهنئة أو مواساة ، وانصرافه إلى إدارة أعماله فى مكتبه الخاص فى وسط المدينة كل هذه الأعباء ، وما كان يشغله مما يجرى على الساحة العربية والإسلامية وما يترقب الإنسانية من حروب وأحداث دولية ، فنقول ، إن كل هذه الأعباء لم تصرفه يومًا عن مداعبة أبنائه ونظم ما يراه من الشعر الرقيق الإنسانى الترعة ، والذى تلمس فيه وقْدَ الحب العارم لفلذة الكبد وراحة الفؤاد ، فعند بلوغ أمينة سنها الثانية نظم شوقى فيها هذه الأبيات :

أمينة يا ابنتى الغالية أهنيك بالسنة الثانية

وأسأل أن تسلمى لى السنيـ ـن وأن ترزق العقل والعافية
وأن تقسمى لأبر الرجال وأن تلدى الأنفس العالية
ولكن سألتك بالوالدين وناشدتك اللعب الغالية
لكم سهرت فى رضاك الجفون وأنت على غضب غافية
وكم قد خلت من أبيك الجيوب وليست جيوبك بالخالية
وكم قد مرضت فأسقمته وقمت فكنت له شافية
ويضحك إن جئته تضحكين ويبكى إذا جئته باكية
فلو حسدت مهجة ولدها حسدتك يا طفلة لاهية

أحد الحاضرين :

نحن نعلم أن الشاعر الإنسان شوقى نظم مسرحيات شعرية كثيرة ، وهو جهد لا يستشعره إلا من جاس خلال هذه المسرحيات مثل مصرع كيلوباترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلى بك الكبير ، والسيدة هدى وغيرها ، فهل هو فى اختياره مواضيع هذه المسرحيات ، كان ملتزما بالروح الإنسانية التى سرت فى كل نظمه وفى كل ماكان يحرك بين جنبيه طرح ما ينظم ؟

الدكتور المحاضر :

كان شوقى من الرعيل الأول من شعرائنا فى نظم المسرحية الشعرية ، وإليه يرجع الفضل فى قيام المسرح الشعرى من كبوته ، بعد محاولات فى مسرحيات

شعرية مترجمة كشهداء الغرام ، وكانت مسرحية غنائية ، كان الشيخ سلامة حجازى صاحب الدور الأول فيها .

وعندما أحس شوقى أن دوره كمسجل لأحداث الشرق ومصر بصورة خاصة ، وكمؤرخ لتاريخ مصر منذ العهد الفرعونى حتى العهد الذى عاشه ، وجد أن لديه طاقة تعينه على نظم مسرحيات شعرية ، وراح يقرأ المراجع الكثيرة وما كتب عن قصص كليوباترا ، أو المجنون ، أو قمبيز . بل ذهب فى هذا الشوط إلى حد أنه أقام فى داره (كرمة ابن هانئ) مسرحًا صغيرًا (ماكيت) كان يستعين به وهو ينظم ، على تخيل مواقف أبطال المسرحية ، استجلاباً للواقعية ..

وقد فتح الباب بذلك أمام الشاعر الكبير عزيز أباظة الذى ولج هذا الباب من بعده ، وأحسن وأجاد فيما قدم من مسرحيات شعرية عديدة .

وكان شوقى كما تفضل السائل ينفث الروح فى القصص التاريخية التى أخضعها للنظم العربى والموسيقى والشعر العربى ، وللمواقف الدرامية الإنسانية التى وقف نفسه على إلباسها الوشى الجميل والديباجة القوية النسج ، والنغم الشعرى المصفى الذى يعبر عن المواقف التى ابتدعها ، وجرت سلسبيلا عذب الخرير .

وقد اختار الموسيقار محمد عبد الوهاب مشهدين من مسرحيتين عكف على تلحينهما تلحينًا كتب له الخلود ، واستحق عليه من جمهوره أجزل الإعجاب .

استمع إليه فى كليوباترا وهو يغنى فى دور أنطونيو :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ما لروحينا عن الحب غنى

رجعت عن شجوها الريح الحنون وبعينينا بكى المزن الهتون
وبعثنا من نفاثات الشجون فى حواشى الليل برقاً وسنا

* * *

غردى يا طير واشهد يا وتر وارو ياليل وحدث يا سحر
كم جنينا من ربا الأنس الصَّفا ورشفنا من مجانيها المُنَى
نحن قربنا له مُلْكَ الثرى ولقينا الموت فيه هيِّنا
هو أعطى الحب تاجى قيصر لم لا أعطى الهوى تاجى منا

* * *

هذا الموقف التاريخى الغنائى التمثيلى ، يجمع كل ما فى الأوبرا أو الأوبريت من تمثيل وأداء وصوت وتعبير موسيقى بارع ذكى ، يشهد للملحن بالنبوغ والاقتدار ، إلى جانب المواقف التى تزخر بالإنسانية مجسمة فى الوفاء حتى الموت ، بين الحبيبين العاشقين كليوباترا ومارك أنطونيو ، وكان النظم الدقيق الرقيق خير عون للملحن . وأبهر ضوء كشف عن المواقف وخلجات نفوس أبطال المسرحية التى امتلأت مواقفها بالوفاء والتفانى .

وعندما تناول الموسيقار مشهداً من مسرحية مجنون ليلى ، حشد فى الموقف مشاعر إنسانية كان شوقى قد أدار بقدرته الفائقة ، حوارها الذى بعث فيها الحياة ، حتى بات ما تراه ، ملموسا محسوساً منذ أن أودعه حشاشة نفسه وحنين قلبه ، مما أعان عبد الوهاب على أن يخلع بموسيقاه على هذا المشهد أرق الأنغام ، وأشجى الموسيقى ، فى حوار لا يصدر إلا عن حبيبين ذاقا مرارة الحرمان .

وهكذا ترجم شوقى بشعره الفريد خلجات النفوس وخفقات القلوب فى صورة تبعث الشفقة وتستدر الرحمة بالعاشقين ، المجنون وليلاه .

اسمعه فى هذا الحوار الحى :

قـــيس : لـــيلى بجانبى كل شىء إذا حضر
ليلى : جمعتنا فأحسنت ساعة تفضل العمر
قـــيس : أنـــجـــدِّين ؟ ليلى : مافؤادى حديد ولاحجر
ليلى : لك قلب فسله ياقيس ينبئك بالخبر
قيس : قد تحملت فى الهوى فوق مايحمل البشر
ليلى : بنى قيس ماالذى لك فى البيد من وطر
أترى قد نسيتنا وعشقت المها الأخر
قيس : غِرْتِ ليلى من المها والمها منك لم تغر

هذا الحوار المتقد بحرارة الحب العذرى ، تكاد شرارته تتصل بقلب كل مستمع له ، فى غناء يحمل الآذان والجوارح إلى دنيا ذلك الموقف العذرى العفيف .

وهذان المشهدان من المشاهد العديدة التى زخرت بها المسرحيتان يظهران بالبرهان الحى المرئى والمسموع ، قدرة شوقى الخارقة فى النظم المسرحى الذى كان مسرحنا العربى فى حاجة إليه وفى ظمأ إلى نظمه العذب النمير .

* * *

والذى أود أن أصل إليه وأنا بسبيل كشف الغطاء عن مكنونات شعر شوقى

فى كل باب طرقه ، كان ذلك فى الشئون السياسية ، أو الوطنيات أو المآسى أو الإخوانيات أو المراثى أو الأغانى ، أو المسرحيات أو المداعبات التى تثير ضحك حتى من قيلت فيه ، أقول : إن ما أود أن أصل إليه من وراء ذلك كله ، هو تفرد شوقى الشاعر الإنسان ، الذى كانت الإنسانية تتسلل وتترقرق فى كل أغراض الشعر التى تناولها بذهن وقاد ونظم لا يجاريه فيه شاعر فى أى عصر من العصور ، وكانت أداته الشعرية خير عون له فى الوصول إلى القلوب والسرائر . وهذه الوظيفة فى النظم تختلف عن وظيفة النثر ، بما تحمله فى ثناياها من موسيقى وإيقاعات وجرس وإثارة ، تشعل الانفعال ، وهو بهذا النظم الإنسانى فى مختلف المجالات ، قد بلغ أعلى الذرى ، على وسادة مخملية لها حفيف ولها نغم ولها كل ما يبعث على العجب والإعجاب .

* * *

ومن المواقف الإنسانية البارزة ، تلك التى ساقتها الأقدار فى أحكامها الجازمة ، لتضع أمير الشعراء فى موقف يتعين عليه فيه أن يتخذ قراراً يتوسط العاطفة والحنان ، والواجب والواقع .

فى عام ١٩٢٧ كان الموسيقار محمد عبد الوهاب يصطاف مع أمير الشعراء فى جبل لبنان ، وفى بلدة زحلة التى كان يؤثرها ويهفو نفسه إليها . وفى أحد أيام شهر يولية من هذا العام ، وردت برقية لعبد الوهاب من شقيقه الأكبر الشيخ حسن عبد الوهاب ينعى له فيها والدهما .

وكان عبد الوهاب قد اتفق قبل ذلك بعدة أيام مع متعهد ممن يقيمون حفلات الشهر لإقامة حفل أعد له العدة وأراد أن يكون تاجاً لكل حفلات

الطرب والسمر ، حيث سيكون صداح الحفل هو الموسيقار محمد عبد الوهاب ، كما سيتيح بذلك لعشاق فنه من الدول العربية المجاورة ومن أهالى لبنان . أن يروه ويسمعوه فى وقت سبق السينما العربية والإذاعة والتليفزيون والتسجيلات .

وتم طبع الإعلانات والتذاكر التى أقبل عليها الراغبون المتشوقون لهذه الفرصة إقبالا فريداً ، وقد وافق موعد هذا الحفل الساهر ، يوم وصول برقية شقيق عبد الوهاب الذى نعى إليه فيها والده . أى ، « فرح هنا وهناك قام المأتم » .

أطلع عبد الوهاب أمير الشعراء على البرقية ، ونقل إليه عزمه على السفر إلى القاهرة ، ولم تكن الطائرات آنذاك تنقل الركاب والمسافرين بل كانت مقصورة على الحرب . ومعنى ذلك أنه سيصل عن طريق البحر فى يومين على الأقل هذا إن وجد مكاناً ، وكانت هناك باخرة ستبحر فى هذا اليوم .

وجد شوقى أن عبد الوهاب بين عاطفة البنوة الوفية ، والواجب الذى يزعزع الثقة بالفنان إذا هو أخل بما تعاقد عليه . فى موقف يستحق التدبير والفكر .

وقال له بعد عزائه إن الأمر بجملته مرجعه إليك ، ولا بأس من أن تسافر كما قررت ، ولكن كنت قد وعدت الدكتور طه حسين أن نقوم بزيارته اليوم ، رداً على زيارته لنا عندما وصلنا من مصر ، وطابت نفسه عندما علم أنك ستكون مصاحبى فى هذه الزيارة لبلدة (بكفيا) حيث يصطاف الدكتور قبل سفره إلى أوربا . فلا أقل من أن نقوم بهذا الواجب قبل رحيلك .

وافق عبد الوهاب ولم يبد أى اعتراض ، واستقلا سيارة إلى (بكفيا) ولما ضمهم مجلس عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، بادر شوقى بإبلاغ الدكتور طه حسين مصاب عبد الوهاب ، فقام الدكتور طه حسين بتقديم عزائه ومواساته ولما جاء ذكر عزمه على السفر برغم ارتباطه الذى كان قد علم به دكتور طه حسين وأنه بسفره سوف يتخلف عنه ، بعد أن تم كل الإعداد لهذا الحفل الكبير ، الذى ينتظره عشاق فنه ، قال له وهو يستمد من حكمة الإغريق ، المنطق والحجة والأمر الواقع والإقناع . مما يتلخص فى هذا المشهد الحوارى ، بمبناه قبل معناه :

دكتور طه حسين : يا محمد يا ابنى ، ما حدث كان لابد أن يحدث ، وهذا قدرنا ولن يعوضك سفرك شيئاً من فقد والدك الكريم ، فأنت ستصل بعد أن تكون مراسم تشييع الجنازة وما يتبعها قد تمت ، وارتباطك هنا يلزمك كفنان أصيل أن يضع فى اعتباره ما له وما عليه ، والفنان أسير فنه . والأحداث تجرى إلى مستقر لها ولابد مما قدر أن يكون .

وهنا قال شوقى مخاطباً دكتور طه حسين : لعلك يا دكتور إذا رويت لمحمد ما حدث لعبده الحامولى يوم زواج ابنه محمود ، يقتنع بأن الفنان لا يقعد به أى حدث لأنه يتميز عن باقى ما خلق الله . بما أودعه فيه من فن عليه دفع الضر به عنه من أعصابه ومن احتماله ومن الرضا بأحكام القدر ، لأنه يحمل رسالة هو مكلف بأدائها .

فقال دكتور طه حسين ، إن موقف عبده الحامولى عند وفاة وحيده ليلة

عرسه ، يبدو بالنسبة لمصاب محمد شيئاً يعتصر القلب ويثير العجب فى قوة الاحتمال .

فقد كان عبده الحامولى يحتفل بزواج ابنه محمود فى يوم معلوم ، وقد أقيم حفل فى الدار للسيدات ، كما أقيم على مبعدة من الدار سرادق للرجال . وقد شاء عبده أن يسعد المحتفلين معه بزواج وحيده ، بليلة من ليالى العمر ، يغنى فيها دوراً كان يناسب هذه الفرحة واستعد التخت للعزف بعد أن ضبط إيقاعاته ، وكان الدور على ما أذكر :

يا وصل شرف يا جفا روح عنا خلى الحبايب بالحياة تهنا

وقبل أن يبدأ الغناء . جاء من الدار خادم أسر فى أذن عبده الحامولى بأن ابنه العريس محمود أصيب بهبوط مفاجئ فى القلب وتوفى فى الحال وهو جالس إلى جوار عروسه .

فطلب عبده من الخادم أن يعود ، ويأمر منه لصاحبة الدار ، بأن لا يرتفع صوت بالبكاء والنحيب من السيدات حتى ينفض الحفل المقام فى السرادق . ثم طلب من أفراد التخت تعديل ما سبق الاتفاق عليه من مقامات موسيقية وأمده الله من وحى المأساة المباغتة بنظم بسيط يم عن شعوره ووجدانه وكانت كلماته .

الصبر محمود لمثلى على حبيبى وبعده
والنار فى القلب ترعى والرب يلطف بعبده

ولدى ياكبدى يا نور العين كبدى يا ولدى بياض العين

واسترسل فى هذا الغناء الحزين مع ترديده على مختلف الإيقاعات ، حتى أبكى الكثيرين ممن حضروا ولم يفهموا سر اختيار الحامولى فى ليلة عرس ولده هذا الكلام المبكى ، وبقى على هذا الحال حتى ساعة انصراف مدعويه ، ووقف عند باب السرادق وهو يشكرهم على حضورهم لمواساته فى موت ولده ، وبهذا زال عجبهم وراحوا يعزونه فى هذا المصاب الذى يهز أى قلب مهما اقتدر احتماله لمثل هذه الفجيعة ، وبكى منهم كثيرون .

ذكر دكتور طه حسين هذه القصة لمحمد عبد الوهاب ثم أردف قائلا ما مفاده ، إن الفنان هو الذى يواجه كل الأحداث مهما بلغت أحجامها ، ويتفاوت الفنانون فى ذلك على قدر مواهبهم ، وأنت ملء العين والسمع وانتشر صيتك بين المعجبين بك ، ولا أود لك أن يهتز قدرك عندهم إن تركتهم وسافرت .

والفنان كالربان الماهر الذى لا ينتظر أن يصادفه فى رحلته نسيم وريح رخاء ، بل لابد أن يحسب حساب العواطف والأنواء ، وعليك الآن أن تواجه بكل شجاعة وتضحية وإيمان ، ما وقع لك من مصاب أليم ، متخذاً فى الاعتبار ، وكأسوة لك ما صادف عبده الحامولى من مصاب وهو فى ذروة ساعات فرحه . ولن يفيدك سفرك شيئاً ، والحزن يكمن فى القلب والعبرة فى الأحزان بما هو مستور منها لا بما هو معلن .

ما زال دكتور طه حسين بعبد الوهاب حتى اقتنع وألغى فكرة سفره — ثم

عمد إلى أن يكتم الخبر عن متعهد الحفل وعن كل من كانوا حوله وعمن كان سيحضر الحفل ، خاصة وأن الصحف القاهرية كانت تصل بعد يومين من يوم صدورها حيث يتم تسليمها أولا فى بيروت ثم تنقل إلى مصايف الجبل بالسيارات .

واستأذن عبد الوهاب من أمير الشعراء فى أن ينظم له أغنية لكلماتها وقع يتفق مع هذا المصاب الذى ألم به ، حتى ينفعل بها وينتقل إحساسه إلى جمهور المستمعين ، وسرعان ما استجاب شوقى إلى رجاء عبد الوهاب الكسير القلب ، وراح ينظم أغنية ، عكف عبد الوهاب بعد أن استوعب معانيها إلى تلحينها تلحيناً يبعث النوح والشجى والطرب معاً .

وكان مطلع الأغنية :

اللـيل بدموعه جانى يـا حمام نوح ويـايه
نوح واشرح أشجانى ده جواك من جنس جوايه

* * *

أخفى عبد الوهاب كل أوجاعه وبدا طبيعياً وجلس ليغنى مثلما هو معتاد ، دون أن يعلم أحد بما يخفيه بين جوانحه ، وتوفر له أن ينقل أحاسيسه الجريحة إلى المستمعين الذين طربوا طرباً شابه شىء كبير من الحيرة من أمر هذا الأسى الذى يتخلل غناء عبد الوهاب ، وهذا الوجوم الذى مهما استطاع أن يخفيه إلا أنه يفلت منه فى الحين بعد الحين ، حتى انتبت السهرة بين إعجاب وتعجب ، وإن كان الجمهور قد أسعده أن يرى وأن يسمع مطربه الأثير .

وكان دور أمير الشعراء فى هذه القصة ، دور الإنسان الذى يزخر قلبه ووجدانه بأسمى مشاعر المواساة وأرق وسائل الإرشاد والتوجيه لفنان يرعاه ويأمل له مستقبلا كان يرى تباشيره بعين بصيرة واعية ، وكان يخشى عليه أن تهتز مقاييسه وقدره عند محبيه إن هو تخلف عنهم .

* * *

كان شوقى فى مراثيه وفى إخوانياته بصورة عامة ، فريد زمانه بين الشعراء فى العالم العربى .

وكان إذا رثى راحلا ، يستجمع فى إنسانيته من أحاسيس نبيلة ومشاعر تتحسس مواقع الخسارة فى الفقيد الراحل ، وتروح تعدد مزاياه ومناقبه حتى لكأنه يحاول أن يرسم تمثالا للراحل بالنظم ليحل محل فقدانه ، بمماته ، وصفاته خلال الحياة .

اقرأه فى مرثيته للشيخ سلامة حجازى :

يا ثرى النيل فى نواحيك طير ... كان دنيا وكان فرحة جيل
لم يزل يترل الخمائل حتى ... حل فى ربوة على سلسبيل
أقعد الروض فى الحياة مليًّا ... وأقام الربى بسحر الهديل
ما لواء الغناء فى دولة الفـ ... ـن إليك اتجهت بالإكليل
عبقريًّا كأنه زئبق الخلـ ... ـد على فرعه السرى الأسيل
أين من مسمع الزمان أغانـ ... ـى عليهن روعة التمثيل
أين صوت كأنه رنة البلبـ ... ـل فى الناعم الوريف الظليل

فيه من نغمة المزامير معنى وعليه قداسة الترتيل
كلما رن فى المسارح « إن كنتُ » أنثنى بالهتاف والتهليل
كعتاب الحبيب فى أذن الصب وهمس النديم حول الشمول

ويقصد شوقى « بإن كنت » قصيدته فى رواية شهداء الغرام (إن كنت فى الجيش أدعى صاحب العلم) .

* * *

أما فى مداعباته وفى إخوانياته فهو نسيج وحده ، وهو المتميز برقة الحس وعذوبة الكلمة وظرف النكتة والمهذب من المجون الراقى .

قال يعابث صديقه الشاعر خليل مطران ، الذى كان مقترًا عليه فى الرزق . وقد بلغه أنه ربح ربحًا فى أوراق (يا نصيب) فبعث إليه بهذا النظم :

لقد وافتنى البشرى ونبئت بما سرا
وقالوا عنك فى أمس ربحت الثمرة الكبرى
فيا مطران ما أولى ويا مطران ما أحرى
لقد أقبلت الدنيا فلا تجزع على الأخرى
أخذت الصفر باليمنى وكان الصفر باليسرى
وكانت فضة بيضا فصارت ذهبًا صفرا
وقال البعض ألفين وقالوا فوق ذا قدرا

* * *

وانظر إلى إنسانيته وأبوته العارمة ، عندما وصف تشبث طفليه على وحسين به عند خروجه ليمنعاه من الخروج :

بكيا لأجل خروجه فى زورة ياليت شعرى كيف يوم فراقه
لو كان يسمع يوم ذاك بكاهما ردت إليه الروح من إشفاقه

* * *

وله فى مجال المجون المهذب الفريد ، أسلوب لم يسبقه إليه شاعر . إنه يرتقى ، حتى فى هذه المداعبات التى كان ينظمها ، إلى مستوى الشعر الجاد الملتزم بكل خصائصه ولزومياته ، ويبدع فيه ما شاء الله له الإبداع كأنما هو ينظم فى أنبل غاية وأهم قصد ، وتلك صفة تلازم العباقرة الذين لا يستطيعون حتى وإن أرادوا ، أن يتخلوا عن بعض التزاماتهم التى تقيدوا بها وانقادوا لها .

حدث خلال زيارة له لإستنبول ، فى عهد السلطان عبد الحميد ، أن لاحظ ما كان عليه (كوبرى جلطه) الذى يربط إستانبول القديمة وإستانبول الحديثة ، من وهن لحقه من فرط ما يحمله من كافة أنواع المواصلات ، فوق السنين العديدة التى قصمت ظهره ، وصار يئن من وقعها ، دون ما اهتمام من المسئول عن هذا الشريان الحيوى وإدخال ما يطمئن النفوس العابرة فوقه ، خاصة أنه كان الكوبرى الوحيد القائم ، وليس هناك من طريق للعبور سواه ، فما كان من شوقى إلا أن نظم قصيدة وجه القول فيها للسلطان عبد الحميد جاء فيها :

أمير المؤمنين رأيت جسرًا أمر على الصراط ولا عليه

له خشب يجوع السوس فيه وتمضى الفأر لا تأوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه سوى مر الفطيم بساعديه
ويمشى (الصدر) فيه كل يوم بموكبه السنى وحارسيه
ولكن لا يمر عليه إلا كما مرت يداه بعارضيه
ومن عجب هو الجسر المعلى على البوسفور يجمع شاطئيه

أى أن رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) يمر عليه ولا يلقى بالا لما وصل إليه الحال.

ومن مداعباته أيضًا ما كان يجرى بينه وبين الدكتور محجوب ثابت الذى كان من جلسائه ومن المقربين إليه وممن يرتاح إلى مجلسه الذى يحتشد بكل أنواع الأحاديث من سياسة إلى اقتصاد إلى أدب إلى تاريخ.

وكان للدكتور محجوب ثابت عربة يجرها حصان هزيل، يمر بها على أحياء القاهرة أيام ثورة ١٩١٩. وكان أصدقاء الدكتور قد أطلقوا على حصانه تندرًا، اسم (مكسوينى) وهو اسم بطل أيرلندى مشهور انتحر بالانقطاع عن الطعام حتى مات جوعًا، فى سبيل تحرير وطنه.

وحدث أن استبدل دكتور محجوب عربته هذه بسيارة ماركة (أوفرلاند) الأمر الذى أوحى إلى شوقى بقصيدة يداعب فيها صديقه محجوب، ويحاول أن يحمل العزاء للحصان الوفى باكيًا على ضياع الوفاء فى الناس وفى هذه القصيدة قال شوقى:

لكم فى الخط سياره حديث الجار والجاره

إذا حركتها مالت على الجنبين منهاره
وقد تحزن أحيانًا وتمشى وحدها تاره
ولا تشبعها عين من البنزين فواره
ولا تروى من الزيت وإن عامت به الفاره
ترى الشارع فى ذعر إذا لاحت من الحاره
وصبيانًا يضجون كما يلقون طياره
وفى مقدمها بوق وفى المؤخر زماره
فقد تمشى متى شاءت وقد ترجع مختاره
قضى الله على السوا ق أن يجعلها داره

* * *

أدنيا الخيل يا (مكسى) كدنيا الناس غداره
لقد بدلك الدهر من الإقبال إدباره
فصبرًا يافتى الخيل فنفس الحر صباره

وكان شوقى من المقدرين للدكتور محجوب مواقفه الوطنية وعطفه على الفقراء حيث لم يكن يعالجهم بأى أجر.

* * *

هذه لمحات عن نفس شاعر إنسان. لم يكن يرى الناس ناسًا. بل أرواحًا تطوى صدورها على الخير والمحبة والإنسانية، ولم يكن يرى الأشجار أشجاراً. بل عرائس وراقصات تكشف عن نحورهن ويسترن سيقانهن ولم يكن يرى

الأحجار أحجارًا ، بل كان يراها مخلوقات تسرى بين جنوبها نسمات الحياة وخصائص الإنسان فى فرح يهش له ، أو جرح يخشاه ، كما رأيناه وهو يصف الساقية التى طال أنينها حتى لم يبق منها إلا الضلوع من فرط نحولها ، أو وهو يصف بقايا قصر أنس الوجود ، أو وهو يصف أشجار الحور الكاسيات العاريات كراقصات الليل فى لباسهن الذى يخفى ما يشاء ويظهر ما يريد أو ما يريده المشاهدون .

كان شوقى فى كل ما ينظم إنسانًا يحب الإنسانية ، على أى حال كانت عليه ، فهو يخف إلى التهنئة فى موضعها ، ويهرع إلى الرثاء فى حينه ، ويمسح عن اليتيم عبراته ، ويكفكف دموع الشعوب المظلومة المقهورة ، التى يطلب لها التحرر والسيادة ، بعد قهر واستبداد .

ولم تكن تكفيه ظواهر الأشياء ، ولا يقف عند البادى من الأمور ، بل نجده يتغلغل فى حشايا النفس البشرية ، يستخلص منها ما تطوى عليه الصدور ، ليدفع بصاحبها الإنسان ، إلى ما يجب أن يكون عليه الإنسان ، كما أراده الله أن يكون .

ونكتفى اليوم بهذا القدر ، لنستكمل فى الأسبوع القادم وفى نفس المكان والزمان ، ما لم نتطرق إليه من جوانب شوقى الإنسانية فى هذه المحاضرة .

* * *

المنظر الثانى :

يجلس المحاضر وأمامه المنصة التى تحمل أوراق محاضرته ، ويروح يجيل النظر فى جمهور الوافدين . محيياً بهزة مهذبة من رأسه . وقد سرت فى أساريره أمارات الارتياح لكثرة عدد المترددين ، الذين ربما حثهم على الحضور ما سمعوه عن المحاضرة السابقة ، فشاءوا أن يلحقوا بما تبقى من هذا الموضوع الشيق المؤنس .

سادتى : نستكمل ما بدأناه من تحليل وعرض وسرد ، لما ضمته نفس الشاعر الإنسان أحمد شوقى من مشاعر وأحاسيس ، تنبع بغزارة من إنسانيته التى تسرى فى جوانبه سريان الهواء فى كل مكان .

وقد رأيت فى هذا الجزء الثانى من المحاضرة ، أن أقسمه إلى أبواب ثمانية ، أرجو أن أكون قد وفقت فى جمعها . لتشمل كل ما أحاط بشوقى من أحداث . أو ما جاشت به نفسه من مشاعر رقيقة دفاقة مشجية .